

حركة السير ربالزم

للأستاذ رمسيس يونان



« يجب أن نحقق لكل إنسان نصيبه من الخير ...
ونصيبه من الشر ... » تروتسكي

يخطئ من يظن أن حركة السير ربالزم هي حركة أدبية أو فنية خالصة ، وإن كانت تستخدم الشعر والقصة والرسم والسينما ... ويخطئ من يظن أنها حركة سياسية بحتة ، وإن كان القائمون بها يدعون بمذهب سياسي معين . وليست هي أيضاً مزيجاً من الفن والسياسة ، فقد صرح « أندريه برتون » زعيم الحركة مراراً وتكراراً بأنه لا يوافق على أن يتخذ الفن وسيلة للدعاية السياسية . وقد فصل « أراجون » من جماعة السير ربالين لأنه خالفهم في هذا الرأي . فما هي إذن حركة السير ربالزم هذه ؟ وما غايتها ؟ يصعب علينا أن نضع تعريفاً للسير ربالزم في كلمات قليلة . فإذا كان لا بد من ذلك فليتنا أن نقول : إنها حركة اجتماعية فنية ، سياسية ، فلسفية ، سيكولوجية ... ولا بأس أن نضيف أيضاً أنها حركة دينية . فهي تستلهم شعر « ريمبو » و « بودلير » و « توربايرون » وتأخذ عنهم حب الخيال الثوري البعيد عن المنطق وأساليبهم الغريبة في الشعور والتعبير . وتستلهم فلسفة « هيجل » في إيمانها بالحرية ؛ وتدين مع « كارل ماركس » بالتفسير المادي للتاريخ ؛ وتأخذ من « فرويد » نظرياته في العقل الباطن ؛ ثم هي فوق ذلك تحاول أن تعتمد على هذه العناصر جميعاً في خلق ميثولوجيا جماعية جديدة mythe collectif تناظر الميثولوجيات التي خالقها الديانات القديمة

ومهما قالوا عن كارل ماركس ، ومهما قالوا عن فرويد فلا شك في أنهما الرجلان اللذان استطاعا أن يؤثرا في الفكر الأوروبي الحديث أكبر التأثير . فإلى كارل ماركس يرجع الفضل في تفسير التاريخ على أساس من حروب الطبقات وفي التنبؤ بثورة العمال وبديكتاتورية العمال ، ثم بالعصر المقبل (الموعود) الذي تزل منه الطبقات وتكتمل فيه المساواة الاقتصادية . وقد تأثر العمال بالذهب الماركسي فنشطت حركاتهم ونمت أحزابهم حتى أصبح الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية أساس السياسة الأوروبية في اسنين الأخيرة ؟ كما تأثر بهذا المذهب عدد كبير من رجال

وقد كان طبيعياً أن يتمدد اللواء للزعامات القومية فيما مضى وأن تصطبغ حتى الزعامات الفنية بالوانها في أتم درجاتها لأن البشرية لم تكن قد التحمت هذا الالتحام الذي تشابكت به اليوم ؛ فلم يكن عجباً أن يكون زعيم القبيلة هو فارسها وهو شاعرها كما كان عنتره العباسي في قومه مفخرة لهم ، له اليد الطولى في مجدهم الحربي ومجدهم الفني أيضاً ... ولكن منذ بدأت الآفاق تفتح أمام المجموعات البشرية حق عليها أن يفتح إحساسها حتى يحيط بكل ما تضرب فيه الحياة وحتى يلم بكل ما يضطرب فيها ولا ريب أن الإنسانية قد انتهت إلى هذا الآن ، فقد قضت وقتاً طويلاً وهي تجرب هذه الدعوات التي تهتف بالقوميات والمصنوعات المادية فتبين لها أنها دعوات ضعيفة عاجزة مناققة أما ضيقها فتتابع لضيق البعثات التي تصلح لانتشار كل منها ، وأما عجزها فتتابع لما تستدعيه من التغير الذي ينفث الكراهية في نفوس الناس فيرجم بعضهم بها بعضاً ، وأما نفاقها فظاهر في أتباعها كما أنه ظاهر في ميوعتها وحيرتها وتناقضها مع نفسها ، فقد كانت للإنجليز قومية يدعون إليها ويفخرون بها ، وكان منهم من أسرع إلى أمريكا فاستوطنها ثم أبى أن يخضع لسلطان وطنه الأول فانقلب على قوميته وأنشأ مكانها قومية أخرى يحبها ويناضل في سبيلها لأنها تتصل بالأرض التي يعيش عليها وبأكل منها ، ولا أكثر . وهذا ما حدث للأسيان الذين نزحوا أمريكا الجنوبية فقد انقلبوا على أسيانها أهم الأولى ؛ ثم انقلبوا على أنفسهم واستأثروا كل جماعة منهم بقطعة من الأرض ... وهذا يثبت أن فكرة القومية والوطنية المادية ليست من الشرف في مكان يملو على المادة ويتساقط عليها ، وما من شك في أن « قومية الفكر » أو « قومية الفن » خير منها . ويتضح فضل الروحانية بمراقبة هذه القوميات المادية عند ما يحتمك بعضها ببعض فإننا نرى أن المادة والشفغ بها يزيدان الصراع بين الناس استثماراً بين المذاهب الروحية كلما توغلت في نفوس الناس على أساس من الصحة والسلامة ومجاعة الطبيعة والبعد عن التكلف كان ذلك أدعى إلى تقارب البشر ، وزيادة تفاهمهم وتمازجهم

فالن إذن ليس زعامة فقط ، وإنما هو أرق الزعامات ليت الداعين إليه يزيدون في الناس ، ولت دعوتهم تذيب ا
عزيمهم فمهمي

أن نرى السحاب في السماء فإذا هو يباقتنا داخل الجدران ... وهكذا نشاهد في الرسوم السيرريالية شجرة تنبت من ذراعان ، وممكة مضطجعة بجانب فتاة عارية ، وهينا تطل من وسط ثدى ، وأجزاء من جسم الإنسان طائرة في الهواء ، وهيكل عظمي يرقص لأن ممكة بجانبه تغرد ...

وللسيررياليين أسلوب آخر في مقاومة عادة التسليم بالأمر الواقع هو اللجوء إلى إثارة الرغبات المكبوتة وتنشيطها وحفزها على التمرد . ومن هنا كلمة « سلفادور دالي » المشهورة : « يجب أن يكون الفن مغرباً بالأكل L'art doit être comestible أي مغرباً بتحقيق الرغبة واجتلاب اللذة . وكلمة « نيكولا كلاس » : « الفن مممل بارود L'art est une poudrière أي وسيلة لهدم عاداتنا في التفكير والسلوك .

وهناك أسلوب ثالث هام من أساليب السيررياليين هو مايسمونه الأسلوب « الأتوماتيكي » في الكتابة والرسم . وهنا يحاول الشاعر أو الرسام منهم أن يتجرد من رقابة عقله الواعي تاركاً لخياله المنان ، حتى يصل إلى حالة تقرب من النيبوتية ، ثم يسجل كل ما يهب ويدب في نفسه من الخواطر أو يترأى له من الأشكال . وقد استعار السيررياليون هذا الأسلوب الأخير عن فرويد .

فرويد يجلس مريضه على مقعد ويثير مريح ، ويوحى إليه بأن يرسم عضلاته ويرسل نفسه على سجيته ، ثم يوح دون تحوط أو تحفظ بكل ما يخطر بذهنه من أفكار ، وبكل ما يختلج في قلبه من عواطف . وبهذا يكتشف فرويد « العقبة » التي تكونت من الرغبات المكبوتة في نفس المريض ، فيصارحه بهذه الرغبات ، ويحاول أن يقتنه بالتفكير فيها بعقله المنطقي الواعي وبالتنازل عنها إذا تعارضت مع حقائق الوسط الخارجي : يعني التسليم بالأمر الواقع . وهنا نقطة الاختلاف الجوهرى بين فرويد وبين السيررياليين : فهو لا يريدون بحال من الأحوال سيطرة العقل الواعي على العقل الباطن ، بل هم يريدون مواجهة العقل الواعي بالعقل الباطن ، والمنطق بالخيال ، والواقع بالحلم ، والحقيقة بالخرافة ، والحكمة بالجنون ...

محاولين أن يؤلفوا من هذه العناصر جيماً أدباً جديدة للتفكير والمعرفة والنظر إلى الأشياء

لهذا يتهم السيررياليون فرويد بأنه « قد اشترى جرائه في البحث العلمى على حساب التحفظ والتسليم بالأمر الواقع في الناحية الاجتماعية » .

[البقية في ذيل الصفحة التالية]

الفكر والأدب ... وها نحن أولاء نرى أعلاماً مثل « برنارد شو » و « ولز » و « أندريه جيد » و « مالرو » و « توماس مان » يدبنون به ويتناغون عنه

والسيررياليون كما قلنا يؤمنون بالمذهب الماركسى ، ولكنهم يرون في نفس الوقت أن الدعوة إلى التحرير الاجتماعى يجب أن ترافعها دعوة إلى التحرير النفسى ، فالنفس الإنسانية مكونة أيضاً من طبقات يتحكم بعضها في رقاب بعض . ولا سبيل إلى الوصول إلى التحرر النفسى ما لم نستطع أن نزيل الحدود التي تفصل بين العناصر المتنازعة في باطن النفس

ولقد أقتننا « فرويد » بأن الشخص « السليم » من الأمراض النفسية هو نموذج مثالى لا وجود له . وما الفارق بين « العاقل » و « المجنون » إلا اختلاف في الدرجة ولا في النوع . والسبب الأساسى لهذه الأمراض جميعاً هو أن للنفس الإنسانية رغبات ، كثير منها لا يتحقق بالنسبة للعقبات التي تقابلها من الوسط الخارجى ، والطفل الصغير لا يدرك هذه العقبات ولذا كان خياله لا يعرف الحدود ، فهو إذ يرغب في سيارة فخمة ، أو في حصان مطعم ، أو في قصر باذخ ، لا يشعر بأن هناك عائقاً من الموانع يمكن أن يحول دون ما يبتغيه ، ولكن رويداً رويداً يتعلم الطفل خلال ممارسته للحياة بأن رغباته جميعها لا يمكن تحقيقها ، فيضطر إلى كبح هذه الرغبات ويعتود التسليم بالأمر الواقع . وكلما كبر في السن نمت فيه هذه العادة — عادة التسليم بالأمر الواقع . حتى أن الصراع بين الرغبات وبين الواقع يستمر طوال الحياة ، حتى الكهل وهو على أبواب القبر لا يستغنى عن الأحلام

وعادة التسليم بالأمر الواقع بين الناس هي الأساس الذى ترتكن إليه دعوات المحافظين ، وهي العقبة الكأداء التي تقف في سبيل كل تجديد وإصلاح . ولما كان السيررياليون يؤمنون بضرورة تغيير النظام الاجتماعى الحاضر فإنهم يشيرون حرباً شعواء على هذه العادة

والأساليب التي يتبعونها في ذلك متعددة : منها ما يسمونه « تقريب » الأشياء dépaysement des objets أى نقلها من وسطها المألوف إلى وسط غريب عنها (المثل الكلاسيكى لذلك كلمة لوتريامون : belle comme la rencontre fortuite d'un parapluie et d'une machine à coudre sur une table de dissection) فن المؤلف أن يرى الأسرة في غرف النوم فإذا هي تفاجئنا في رسم سيز ريبالى على شاطئ البحر ، وقد تمودنا